

تيمة الموت في رواية الديوان الإسبرطي لـ "عبد الوهاب عيساوي"
The theme of death in the novel of the Spartan Court by "Abdul Wahhab Al-Issawi".

د. الطيب كحيلش^{1*}، د. حكيمة قدراني²

¹ جامعة الجزائر 2- (الجزائر).

² جامعة زيان عاشور - الجلفة (الجزائر).

تاريخ الاستلام : 28 فيفري 2023 ؛ تاريخ المراجعة : 15 ماي 2023 ؛ تاريخ القبول : 16 جوان 2023

ملخص:

شهدت رواية "الديوان الإسبرطي" استحضار أو توصيفاً لمرحلة تاريخية من تاريخ الجزائر بينت فيه أفقا مفتوحا من خلال الأحداث والوقائع عبر أنساق مضمرة وظاهرة، بآلية التدوين الكتابي، ورسمت لنا تيمة زمكانية عكست لنا وعيا ثقافيا، وطرحا سرديا زواجا بين التخيل والواقع، بلمسة فنية عمد خلالها الروائي إلى بعث بعض الجوانب التاريخية وإضاءة العديد من الترسبات والمزالق التي دونتها المتون التاريخية، وشهدت الرواية من بدايتها إلى نهايتها صراعا مريرا بين ثنائيات الموت والحياة والعنف والاضطهاد والقسوة والألم والانا والآخر تمثله عديد الشخصيات ببناء مواقف لكل شخصية، وهو ما جعل من تيمة الموت الحدث الأبرز والنتائج الحقيقي والحتمي لصورة الصراع الثلاثي الجزائري، العثماني والفرنسي وفي الصراع كذلك بين الثقافات والطبائع، في رصد دقيق وماتع من طرف الروائي عيساوي عبد الوهاب.

الكلمات المفتاحية: تيمة، سرد، عنف، موت، تخيل، رواية.

Abstract:

The novel "Al-Divan Al-Isbarti" witnessed an evocation and description of a historical stage in the history of Algeria, in which it showed an open horizon through events and facts through implicit and apparent formats, with the mechanism of written notation. artistic, during which the novelist intended to resurrect some historical aspects and illuminate many sediments and pitfalls that were written down in the historical texts, and the novel witnessed from its beginning to its end a bitter struggle between the dichotomies of death and life, violence and persecution, cruelty, pain, ego, and the other represented by many characters by building positions for each character, which made it a theme Death is the most prominent event, the real and inevitable result of the image of the Algerian, Ottoman and French tripartite conflict and in the struggle as well between cultures and natures, in careful observation and enjoyment by the novelist Issawi Abdel Wahhab.

Keywords: theme; narration; violence; death; imagination; novel.

*Corresponding author: e-mail: tayebuniversity017@gmail.com

1- مقدمة

يعد الموت القدر المحتوم الذي يواجه الإنسان، مهما تعددت أشكاله وصوره، والذي يدفع الذات الإنسانية إلى النهاية واللاعودة وفق مسار الطبيعة الأزلي، وشكل كمقابل للحياة سجالاتا فلسفيا وفكريا وأدبيا عبر العصور باعتباره قضية الإنسان التي تدق مضجعه وترديه في دائرة التأمل والهواجس وتهدم أحلامه وأماله.

وشكلت تيمة الموت في الرواية الجزائرية الحديثة والمعاصرة جزءا هاما من السرد الروائي، نظير الأحداث التي عاشتها أرض الجزائر من أحداث ووقائع إلا أن الروائي عبد الوهاب عيسوي يأخذنا بتيمة الموت إلى فترة من بداية القرن التاسع عشر (1813-1833) حيث شهدت الجزائر استعمارا فرنسيا على غرار بعض الدول العربية والإفريقية.

2- الرواية والتاريخ:

يشكل التاريخ والرواية علاقة تكاملية فالتاريخ ذاكرة الشعوب وخزانة أسرار الأجيال والرواية تستثمر في التاريخ بوظيفتها السردية وطاقتها الدلالية والتمييزية للصيرورة الزمكانية بأحداثها وشخصياتها وبين نسيج اللغة وزخم التاريخ تفتت الرواية التاريخية متسيدة المشهد الروائي من كونها " هي امتزاج التاريخ والأدب؛ فالتاريخ ماهو إلا حقائق مجردة لوقائع تاريخية معينة سواء كان الأمر يتعلق بالحوادث أو بالشخصيات، بيد أن هذا التاريخ المجرد عند ما يدخل بنية أساسية تعتمد عليها الرواية يأخذ شكلا جديدا". (الخطيب، 2008)

والرواية التاريخية بانورامية سردية بألوان إبداعية تسترعي النفس الإنسانية بتحريك الماضي بزمان الحاضر فترسم السير والأقاصيص الشعبية وأمجاد البطولات والملاحم، تجعل المتلقي يفتح نافذة على تاريخه وموروثه وتراثه بنظرة شاملة يتفنن السارد الروائي في إحكام مشهدها وفق ضوابط وآليات سردية إبداعية معينة.

ولا تكمن أهمية الرواية التاريخية في سردها بل تتجاوزه إلى " الايقاظ الشعري للناس الذين الذين برزوا في تلك الأحداث، وما يهم أن نعيش مرة أخرى الدوافع الاجتماعية والإنسانية التي أدت بهم إلى أن يفكروا ويشعروا ويتصرفوا كما فعلوا تماما في الواقع التاريخي" (لوكاش، 1986)

وكما تصدرت الرواية التاريخية المشهد، اعتلت الموت الجانب الأهم في الرواية التاريخية باعتبارها المآل الحتمي للشخصيات والأحداث وتعددت أوصافها وتيمات.

فقامت تيمة الموت في الرواية التاريخية إضافة إلى أثرها المرئي على إنزياحات صورية ودلالية يتطلها السياق السرد التاريخي الذي يوظفه الروائي مع إضافة تخيلات حكاية أعطت للمسرد واقعية في مشاهد

متعددة فالموت في الرواية استلاب للحرية وقتل للأمل وإذابة للقيم وطمس للذكريات وتلاشي روابط الإخاء والمودة .

3- مفهوم التيمة:

يلف مصطلح التيمة الكثير من الغموض في تعاريفه لتشابه مفاهيمه وتداخل استعاراته بين عديد المجالات الأدبية، فالتيمة "كلمة Theme كانت تعني في القرن 13 كل ما تعنيه كلمة 'Sujet' (مادة أو فكرة أو محتوى أو قضية أو مسألة في العربية)، ثم تطورت في القرنين 16 و17 ميلادي لتدل على امتحان: مدرسي (composition scolaire) وترجمة (tradiction) وبعدها دخلت علم التنجيم منذ القرن 17 ثم علوم الموسيقى، واللغة منذ القرن 19 ميلادي، حيث ظهرت الموضوعاتية (thematique) في القرن ذاته. (وغليسي، 2008)

والتيمة قد يذهب مفهومها في الخطاب النقدي إلى "موضوعة" أو الموضوعاتية التي تسعى إلى استخلاص الفكرة العامة أو الرسالة المهيمنة أو الرهان المقصدي أو الدلالة المهيمنة أو البنية الدالة التي تتمظهر في النص أو العمل الأدبي عبر النسق البنيوي وشبكاته التعبيرية تمطيها وتوسيعا أو اختصارا وتكثيفا، والبحث أيضا عما يجسد وحدة النص العضوية والموضوعية اتساقا وانسجاما وتنظيما" (حمداوي، دون سنة)

افتتح الكاتب الرواية بمشهد استهلاكي لتيمة الموت لما لها من أهمية تجلت بقوله "اثنا عشر سنة انقضت على موت نابليون، وثلاث سنوات بعد سقوط الجزائر" (عيساوي، الديوان الإسبرطي، 2018)، وجاء ذكر الموت في مقدمة الرواية لكون الاستهلال هو العتبة النصية الأولى التي تنبني عليها الأحداث فيرتقي بها القارئ لتتراءى له باقي المكونات والعتبات النصية السردية وفق استثارة حساسية تجاه مضمون المتن وما يحويها كإن الراوي أراد تذكير الغزاة أن نهايتهم ستكون موتهم مهما بلغ جبروتهم وذكرهم بموت قائدهم الأسطوري بونابرت، ومشروعه الاستعماري الذي تحمله الشخصية فكما يقول جاك شورن "آخر المحن التي يتعرض لها الإنسان، وأشدّها قسوة الإختبار الحقيقي لقيمته" (شورن و كامل، 1978)

4- أحداث النص الروائي:

جاءت الرواية في خمسة فصول متكاملة، حمل كل فصل شخصياته وأحداثه وعبرت الرواية في مجملها عن حدث تاريخي مفصلي وهو احتلال الجزائر من طرف الاحتلال الفرنسي في بدايات القرن التاسع عشر (1830) حين كان التواجد العثماني يلفظ آخر أنفاسه على ظهر المحروسة . وتنامت أحداث الرواية عبر زمكانية حيوية تنوعت أماكنها ما بين المحروسة وفرنسا وانجلترا وعرض البحر المتوسط وامتدت زمانا ما بين (1815-1833)، وعمد خلالها عيساوي إلى وقائع وأحداث مرجعية يلجأ إليها القارئ كلما تعمق في أحداث الرواية وتشابكت خيوط نسجها.

5- تجليات تيمة الموت في رواية الديوان الإسبرطي:

أخذت تيمة الموت في رواية الديوان الإسبرطي أوجها عديدة منها مادية ومعنوية ورمزية، فارتبطت بالصراع الدائم مع البقاء والصراع مع الآخر، فكان حضورها وبقوة في فصول الرواية مشكلة بذلك نصا مليئا بالمعاناة والحزن والسوداوية. كما كان حضور تيمة الموت في الرواية لتعميق البعد الدلالي لبنية الرواية التاريخية، سعى الراوي لبلورة بعدها الفني ضمن متون الرواية.

فتيمة الموت حاضرة في أقسام الرواية، تتقاطع بين مواقفها وشخصياتها وأحداثها تلونها السياقات السردية، السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية المنفتحة على عالم الرواية الخارجي وعالمها الحوارية الداخلي، فإذا كان الموت في الرواية حقيقيا، وحدث في مرحلة تاريخية وهو ما جعل الكاتب يعده فاصلا لبداية الأحداث ويتسع مفهومه تبعا لسير مجريات الأحداث وتمفصلاتها الجمعية والفردية فكانت هي التيمة الأساسية المسيطرة على أركان الرواية لشدة أثرها فأخذت أبعادا متعددة الجوانب الحياتية لمختلف شخصيات الرواية.

1-5- على مستوى الشخصيات:

تشكل الشخصية أساس العمل السردية فهي ركيزته ومحور إبداعه، تقوم بأدوار رئيسية وفرعية فنرى أن أهمية في لرواية يجب أن " تحتضن الشخصية باعتبارها عنصرا دائما الحضور، وغعتبرها سندا دائما لصفات مميزة ولتحولات سردية، العوامل الضرورية لانسجام ومقروئية كل نص " (هامون، 2013)

أبانت رواية الديوان الإسبرطي عن مسرد تاريخي متكامل، محمل بتعدد الشخصيات تبعا لأثرها الروائي وموقعها الرمزي التاريخي ضمن فصول الرواية التي تروي جانبا مهما في الحياة التاريخية للجزائر.

- شخصية "حمة السلاوي":

وهي شخصية محورية في الرواية والتي ترفض الوجود الأجنبي على أرضه حيث يحمل حمة السلاوي شعورا عميقا بالإنتماء والقومية وللمحروسة، فهو الرفض للاستسلام والهزيمة والانبطاح وهو ما عبر عنه خلال التواجد العثماني فهو دائم الدعوة "لثورة عليهم، غير أن أهل المحروسة خانعون ومنذ سنوات كانوا يطأطئون رؤوسهم ويجتنبون الأتراك في الشوارع، المدينة تجعل الناس أكثر جبنا وتقبلا للغزاة" (عيساوي، الديوان الإسبرطي، 2018) كما كان شاهدا على عبثية الموت التي ترددها جهنمية الجيوش الفرنسية تجاه السكان الأصليين العزل وكذلك الحاملين للسلاح في مشهد كابوسي كارثي مما جعله يبحث عن الأمير لصد الغزاة المستعمرين فذاته "راغبة في تأسيس وجود مغاير للوجود الجمعي وهو في شباك الموت تمارس ضده فاعلية التمزق" (هلال، 2005)، فهي هو يبحث عن أميره الذي "بايعه الناس على قيادتهم، والآن يحارب الفرنسيين حتى أضحت مدنا كثيرة تحت لوائه... هذا هو الرجل الذي ظلت تصبو أن يظهر في المحروسة... يزحف

بجيشه عليها ويعيدها إلى أهلها بعد غياب قرون؟" (عيساوي، الديوان الإسبرطي، 2018)، وهو ما ينم أن السلاوي يحمل الموت تجاه الأتراك والفرنسيين على سواء وهو صوت السكان الأصليين للمدينة فكلهم في سبيل الوطن يحملون ما حمله السلاوي فأفجع الموت ما مس الوطن والإحساس بفقده والعيش فيه غريبا. فموت السلاوي ينجم عنه "حينها آلاف من أشجار السلاوي" (عيساوي، الديوان الإسبرطي، 2018)، "يكون أفضل من حياة الخنوع والذل والعبودية، فالموت حين يكون على الواقع المتعفن يكون حياة سامية" (هلال، 2005)، ولم يرد السلاوي الرحيل عن المحروسة ولكن من أجلها والذود عنها لا بد من ذلك "لم يكن الرحيل عن المحروسة بالنسبة لمحبيها إلا وجهها آخر للموت.." (عيساوي، الديوان الإسبرطي، 2018).

- شخصية "كافيار":

حملت شخصية كافيار العسكرية على إعتبار أنه ضابط فرنسي والأب الروحي للحملة على الجزائر حيث حملت شخصيته الكثير من الموت تعكسها دوافعه الشخصية الملهمة والمجددة لنابليون الذي خسر معه معركة واترلو الشهيرة والتي لطخته سيرته الحربية بعد نجاحه من الموت المحقق فيقول: "وهكذا تقدمنا لأننا رأينا إنسحاب الجنود الإنجليز من خلف الربوة وبعد لحظات كنا نوشك أن نبلغها، ولم نعلم أنهم كانوا خلفها بتلك المسافة الضئيلة آلاف من الإنجليز والبوسيين الذين إنضموا إليهم في غفلة منا يصوبون بنادقهم تجاهنا.... أما حين استفتقت فلم يكن هناك سوى عدد قليل من جنودنا يحاولون مواراة الموتى في حفرة كبيرة.." (عيساوي، الديوان الإسبرطي، 2018)

في الرواية كما أن كافيار ذاته متشعبة بخطاب الكراهية حتى الموت فهو الذي يريد الموت لرياس البحر من الأتراك والعرب الذين أذاقوه أشد العذاب حين تم أسره إثر عملية قرصنة. وهو الذي تمنى وقت أسره أن ".... يأتي الفرنسيون يوما ما.." (عيساوي، الديوان الإسبرطي، 2018) وهو الذي تمنى كذلك وقت الإغارة على ميناء الجزائر وهدم جزء من المدينة ".... لو أن الفرنسيون هم من فعل ذلك.." (عيساوي، الديوان الإسبرطي، 2018) ولم تكن شخصية كافيار إلا الأنا القومية الفرنسية المسيحية التبشيرية المليئة بالغرور والحاقدة لحد الموت على الجزائر وعلى الديانة الإسلامية، فسفها تحركت تجاه "إفريقية تحمل التعاليم الجديدة التي ستغير الناس، سنكون حتما مثل أولئك الحواريين الذين تفرقوا في بقاع الأرض لنشر كلمة الرب" (عيساوي، الديوان الإسبرطي، 2018)، ويظهر كافيار في المقطع يحمل إيديولوجية دينية مقيتة فيقول "ليس هناك ما يجعلني أتفق مع هؤلاء الأتراك المحمديين ولهم إلههم الذين يدعوهم لاضطهادنا، أليس غريبا أن أول ما حفظته من لغتهم هي سبائهم إياي بالمسيحي الكافر" (عيساوي، الديوان الإسبرطي، 2018)، وهو الشعور الذي تولد لدى هذه الشخصية التي تحقق حلمها بسير نحو الجزائر لاحتلالها حيث ردد قائلا: "أخيرا جاء اليوم الذي رجوته طويلا.." (عيساوي، الديوان الإسبرطي، 2018)، ويردد كافيار هذا الكلام لأنه جرب شكلا من أشكال الموت حين أسر ذات يوم فيقول لصديقه "لو جربت العبودية في الجزائر وحررك منها أعداؤك لما سألتني" (عيساوي، الديوان الإسبرطي، 2018).

- شخصية "المزوار":

وتعد شخصية المزوار شخصية تركية تتسم بالخيانة والغدر إضافة إلى إداراته للمبغى الذي يستغل فيه بنات المحروسة ما فتح باب الكره والمقت عليه من طرف حمة السلاوي الذي لم يرسبيلًا للخلاص منه إلا بقتله والفرار من المحروسة. "وقد أقسمت أنني لا أرحل عن هذه المدينة حتى أنتهي منه، إن رجلا مثل المزوار لا يستحق الحياة في المحروسة بعد رحيلي" (عيساوي، الديوان الإسبرطي، 2018)، ويؤكد السلاوي مقتله للمزوار الذي يحمل صورة التواجد العثماني غير المرغوب به لدى أهالي الجزائر "إنني لم أقتل رجلا فاسدا من بقايا بني عثمان فقط بل سأقتل أسوأ شيء استمر بين زمنين زمن بني عثمان وزمن الفرنسيين" (عيساوي، الديوان الإسبرطي، 2018)، ويظهر هنا البطش واللؤم الذي يبديه العثمانيون تجاه السكان فهم على طينة واحدة "فإنك ستقتله أكثر من مرة، يحتاج المزوار إلى آلاف من الحيوانات كي تقتله فيها ولن يتغير شيء، ما إن يموت حتى يظهر مزوار آخر.." (عيساوي، الديوان الإسبرطي، 2018)

- شخصية "بن ميار" وزوجته لالة "سعدية":

وهي شخصية عربية محورية في المتن الروائي تملك حضوة لدى الأتراك لإنتمائه للطبقة البرجوازية ما أكسبه علاقات مميزة معهم ، لإمتهانه التجارة وتعلمه أصول السياسة ودوائرها عن والد فقد كان يرسله الأتراك "لتأديب العريان التي تتمرد على الباشا" (عيساوي، الديوان الإسبرطي، 2018) ، بعد الإحتلال وضع بين سندان الفرنسيين ومطرقة العثمانيين فأحبال الموت تلف رقبتة وتنازعه إلى حضيض ومهاوي العيش، فكانت الشخصية من الذوات المقهورة في الحكى السردى جعلت منها شخصية مطاردة بسبب تمرداها وأفكارها ومواقفها المناهضة فهو القائل " زمن الأتراك كان له قناع الدين والفضيلة ، أما زمن الفرنسيين فله قناع المصلحة والنظام" (عيساوي، الديوان الإسبرطي، 2018) واعتبر الوضع العام بعد الاحتلال الفرنسي " يمارس الموت بوصفه انهيارا سياسيا" (هلال، 2005)، هذا ونفته السلطات الفرنسية إلى إسطنبول يعيش الموت في منفاه.

أما زوجته لالة سعدية ورغم خفوت صوتها في المتن الروائي إلا أنها كانت حاضرة رفقة زوجها تشد أزره وتدعمه في كتابة العرائض والمناهضات وهي شخصية بسيطة طيبة لم تشأ المغادرة إلى المنفى قبل تزور الولي الصالح كعادة ساكنة المدينة فقالت دوجة " طلبت مني مرافقتها إلى ضريح عبد الرحمان الثعالبي، رغبة ألحت عليا أنه لا بد من الخروج معها أشهر عديدة لم أزره، تقبض قلبي مذ رأيت من مرتفعه صف السفن شعرت أن الأيام القادمة لن تكون سعيدة" (عيساوي، الديوان الإسبرطي، 2018)، وهي رؤية صوفية من لالة سعدية طلبها للعون من الولي الصالح بأن يدفع عن المدينة الموت القادم من وراء البحار.

- شخصية دوجة:

دوجة هي تلك الصبية التي قست عليها الظروف وأجبرتها على الرحيل إلى مدينة الجزائر بعد أن إختطفت منها الموت والديها وأخوها الصغير فلم تجد معيلاً لها غير الرحيل ، " عند آخر حفنة رمل دثرت بها أبي، ثم شقت طريقي إلى هنا.. " (عيساوي، الديوان الإسبرطي، 2018) وحين حلولها بمدينة الجزائر عملت على تنظيف البيوت وخدمة أهلها قبل أن يجبرها المزوار على البغاء في المبغي الذي يديره رغماً عنها وهو ما لم يطقه حمة السلاوي الذي علم بقصتها ، فخلصها من المزوار وأسكنها دار بن ميار والذي لم تشأ الرحيل معه إلى منفاه اسطنبول رفقة زوجته، ورغم عدم قدرتها على مجابهة الاحتلال إلا أنها رفقتهم من " البغايا يحرصن على شرف المحروسة ؟ لك أن تفخر الآن يا صديقي السلاوي " (عيساوي، الديوان الإسبرطي، 2018)، فالموت هنا كما أرادته الروائي هو الوجه الآخر لعمله الأليم والفراق...

ورمزت دوجة في الرواية إلى الجزائر التي تعاقب عليها الاستعمار كما تعاقب على دوجة المغتصبون لكنها تظل عصية ولم يستفرد بها أحدا منهم رغم ظلمهم وجورهم والنيل من كرامتها. "تروي السرديات كبرى لتاريخ الجزائر أن هناك دوافع كثيرة تجعل من هويتها مصنوعة، وهو ما تدل عليه مآثرها ومناقبها التي تعد جزء من مكوناتها الحضارية منذ ، غابر التاريخ، وحتى قبل الحقب الفينيقية، أو بحسب ما تشير إليه نقوشات.

الطاسيلي الصخرية التي تمثل حياةً غامرةً بالمكونات الحضارية العريقة، يعود تاريخها إلى آلاف السنين؛ ومعالماً أخرى في مواقع أثرية عديدة، يرجع تاريخها إلى دابر الأزمان، وعبر مراحل تطور الحضارة الجزائرية كانت المهابة تلازمها، ولم تكن في مدة ما سيرورتها منفصلة عن هويتها، حتى في أحلك الظروف." (فيدوح، 2021)

- شخصية ديبون:

شكلت شخصية ديبون دوراً هاماً في الرواية بإعتباره كان مراسلاً ومدوناً للحدث التاريخي رفقة صديقه كافيار إبان حملته على الجزائر ، قال له كافيار " دون الآن يا ديبون في دفترك أننا قد بدأنا الحملة على الجزائر " (عيساوي، الديوان الإسبرطي، 2018)، وهي شخصية مؤمنة ملتزمة بتعاليم الدين المسيحي، كانت مع فكرة الموت للعثمانيين تخلصاً لأهالي البلد من ظلمهم فيقول: " نحن نحمل الحرية والنور لهؤلاء العرب ضد مضطهديهم العثمانيين " (عيساوي، الديوان الإسبرطي، 2018)

وهي فكرة كان صديقه كافيار دائم السخرية منها ، لكنه مع بداية الإنزال البحري ونشوب الإقتتال بين الطرفين إكتشف ما كان يدور بذهن صديقه وتحطمت فكرته وتعاليمه المثالية أمام مشاهد القتل وعدد الجثث فهاله الأمر وقال: " وكلما التفت إلى جهة أفزع من منظر الأجساد المنثورة من حولي، وروح الله لم ترف على السهل الأحمر بل غادرت، هل هذا هو النور الذي آتينا به لهذه الأمة " (عيساوي، الديوان الإسبرطي، 2018)

وأدرك ديبون أن التواجد العثماني كان أرحما من الاستعمار الفرنسي، فالآلة الاستعمارية موت محتم لمن قابلتهم من البشر الذين يزدودون عن وطنهم وشرفهم فيقول: "يضحك كافيالواقف قربي مرددا ما الذي أتى بك إلى هنا يا ديبون وقلبك لا يحتمل الموت" (عيساوي، الديوان الإسبرطي، 2018)

2-5- على مستوى الأحداث:

يعد الحدث الروائي مكونا سرديا من مكونات السرد إذا انطلقنا من خصوصية العمل الروائي على اعتبار أنه عملية سردية تلتقط وقائع العالم الخارجي وقعت لشخص في زمان ومكان معينين " (محمد، دون سنة) هذا وتعدد الأحداث في الرواية وفق تراتبية سردية تاريخية عكسها ترابط الأحداث وتشابكها فبعد الحدث الذي جنى على المحروسة غزوا واحتلالا والذي تمثل في حادثة المروحة بين القنصل الفرنسي ونظيره الباشا "... لماذا تأخر مللكم عن إيفاء الديون ولماذا لا يجيب عن رسائل عديدة؟ تفوه القنصل بما أدهش الجميع.

- الملك في باريس لا يلتفت إلى شخص مثلكم.

- ولم ينتبه الباشا إلى نفسه إلا وهو يضرب القنصل بالمروحة" (عيساوي، الديوان الإسبرطي، 2018).

والذي كان حدثا حمل في تبعاته الموت للأهالي وللمحروسة على امتداد فترة الاستعمار. لتليها فيما بعد أن " دخل الجنود الفرنسيون مدينة الجزائر من الباب الجديد على المدينة وأنزلت أعلام الداي من جميع القلاع والأبراج وإرتفعت في مكانها رايات الإحتلال الفرنسي" (عيساوي، الديوان الإسبرطي، 2018)

لتكون الحملة صراعا ثقافيا دينيا واقتصاديا وسياسيا " فالكل كان يريد المشاركة في حملة الجزائر، حتى القس رأيته متشبثا بالقائد العام تتلاحق أنفاسه بالكلمات، حلمي يا سيدي القائد الانضمام إلى زمرة هؤلاء المباركين الذين يعلنون شأن المسيح" (عيساوي، الديوان الإسبرطي، 2018)، فكان الإحتلال وكانت المقاومة وفقد الكثير حياتهم في سبيل دفع البلاء "... إن كان الموتى كثيرين من أهل المدينة... قد مات الكثير يا سيدي ، وحتى النساء اللواتي كن معنا ، جلهن قد قتل" (عيساوي، الديوان الإسبرطي، 2018)، ليمثل الكل أمام الموت الواحد في حلبات الصراع فوق ساحات القتال " لونت الدماء الأرض، وامتزجت بالتراب، ثم أوحلت لأول مرة أرى وحلا من الدماء، خطوات بقدمي فوقه ولم أدر إن كانت دماء مسيحية أو محمدية أمام الموت يستوي الجميع، امتزجت أشلاؤهم بأشلائنا وتكومت أرجل وأيد منهم ومنا وتختثرت الدماء حتى صارت دما واحدا" (عيساوي، الديوان الإسبرطي، 2018)

- مشاهد القتل المروعة:

ضجت الرواية بعدد المشاهد الدموية المروعة مارسها الإحتلال ضد الشعب الأعزل والمسالمة من تهديم المساجد وقتل المصلين والتنكيل بهم فقد "حطموا أبواب المسجد وأخرجوا الناس من داخله بالقوة كانوا يتدافعون وهم يغادرونه حتى اجتمعوا بالباحة ثم أطلقوا عليهم الرصاص ركضوا في كل جهة ثم سقطوا مخرجين بدمائهم" (عيساوي، الديوان الإسبرطي، 2018) ويضيف الراوي عديد المشاهد منها إبادة قبائل

بأكملها حيث يقول: "وعندما انتشرت الظلمة سمعت وقع أقدام قربي، عاد بعض الذين فروا إلى الغابة لم أر تفاصيل وجوههم لكن سمعت أنيهم وبكاءهم حملت معهم الجثامين ولم نفرغ من دفنهم إلا بعد بزوغ شمس يوم جديد غابت فيه قبيلة إلا قليلا عن الوجود" (عيساوي، الديوان الإسبرطي، 2018)

- السطوة على المقابر:

منذ البداية، نقف على مشاهد التي أفضت إلى الموت متمثلة في نقل العظام البشرية، والمتاجرة بها والتي يحتاج إليها ملاك مصانع السُّكَّر لتبييضه، وهو ما كشفه ديبون رفقة طبيب الحملة في سفينة قادمة من الجزائر وهو ما نقله في صحيفته "لوسيمافور دو مرساي"، حيث يقول: "وهاهم حين بدأت الأموال تنضب التفوا إلى مقابرنا، أولئك المالطيون... وينزلون المنحدرات إلى مقابرنا ثم تجرؤا وصاروا يغزون مقابرنا نهارا يفتشون عن ما تبقى من عظام أطفالنا وشيوخنا" (عيساوي، الديوان الإسبرطي، 2018) فالموت هنا لا يعدو مفارقة الروح لجسدها بل يتعداه إلى موت الإنسانية واجتثاث كل ما نبض بالحياة فالفرنسيون لم يسلم من بطشهم لا الأحياء والأموات حيث ردد سكان المحروسة "... الآن أصبحت مقابرنا حقولا وغلالا لكم" (عيساوي، الديوان الإسبرطي، 2018)، فالاستعمار نهب للثروات والرفاة في ظل المركزية الأوروبية وسياسة الاستعمار "فإن المال إله جديد، يغريك كي تحفر القبور وتأكّل عظام إخوتك بدعاوي كثيرة..." (عيساوي، الديوان الإسبرطي، 2018).

ويلاحظ ضمن متون الرواية تكرار (القبر/ المقبرة) الذي يعمق الأثر الشعوري والنفسي. مع الجنازات اللا متناهي لجثامين الشهداء من أبناء المحروسة فالواقع المميت استفحل داؤه وعظمت نيرانه حيث كثرت المقابر في سهول المحروسة وهو ما أكدّه الراوي قائلا "ينحدر أمامي السهل تملأه مقابر المحمديين، أراه على صهوة الحصان" (عيساوي، الديوان الإسبرطي، 2018).

3-5- على مستوى الأمكنة:

يمتلك المكان أهمية كبيرة في العمل الروائي على غرار باقي الأجناس الأدبية لأنه يؤسس للحدث عبر فضاءاته المتعددة. فالمكان "في الرواية عنصرا مهما من عناصر السرد الروائي، ليس لأنه الفضاء الأفقي للنص فقط، حيث تدور الأحداث ويتحرك الأبطال في دوائر متقاطعة وتتضح معالم شخصيتهم وتنمو وتتحول، بل لأن المكان في كل أبعاده الواقعية والمتخيلة يرتبط ارتباطا وثيقا بالجانب الزمني والتاريخي للنص وشخصه بحيث ينتج عن تفاعل (الزمني والمكاني) منظومة سردية تنتظم في الشكل الروائي الذي تم اختياره لتقديم الأحداث وتفاعلاتهم النفسية والحركية في المكان (الرحمان، 2012)

واتخذت الرواية في عمومها أماكن مفتوحة عكسها السرد المباشر للأحداث والوقائع فكانت مدينة الجزائر "المدينة البيضاء أو الرخامية أو معقل القراصنة أو بؤرة الدم أو مضطهدة الأوربيين ومستعبدتهم"

(عيساوي، الديوان الإمبرطي، 2018)، مسرحا لها فحتى المحروسة أخذت بعدا آخر لسكانها بعد كانت حبيبته
أضحت " الحياة في المحروسة هي شكل آخر للموت، أراه كل يوم في عيون الناس " (عيساوي، الديوان الإمبرطي،
2018)

هدم المساجد وبيوت العبادة:

عمدت السلطات الفرنسية إلى إزالة الثوابت الدينية لسكان المحروسة بالاستيلاء علة أوقافهم بعد أن
عاهدتهم على عدم المساس لكن الاحتلال لا وعد له ، خاصة بعد رؤيته لتمسك الجزائريين بأوقافهم وحمايتهم
رغم أن أصواتا فيها من "يعارض إحتلال المساجد واستبدالها بالكنائس والمستشفيات" (عيساوي، الديوان
الإمبرطي، 2018)، فموت الأمكنة موت للحضارة ودعوة إلى الإنسلاخ عن المبادئ والقيم التي يعتز بها سكان
المحروسة "بعد أن حرمتهم حكومة الاستعمار من زعمائهم وقادتهم ومدارسهم وأوقافهم وفرضت عليهم الذلة
والمسكنة، وحرمتهم من كل مميزات شخصية الدين واللغة والتوجيه. لقد بقي لهم شيئا واحد هو الإسلام
والإيمان بالله" (رمزي، دون سنة). فقد طغت نبرة الحزن المليئة بالتشاؤمية فالموت تحاصر المدينة وتكتم
صوت المصلين المتدفقة في الماضي بالشعور الروحاني وهي تجوب مساجد المدينة التي أضحت إسطبلات
وكنائس والتي أحكم المستعمر شؤونها وأثر " أن يسحجهم من المساجد التي تحولت إلى ثكنات " (عيساوي،
الديوان الإمبرطي، 2018). فما كان من رجال الدين إلا حث السكان على الدفاع عن مقدساتهم حيث " كان
المفتي يطلب من الناس حمل السلاح والوقوف في جوههم والدفاع عن بيوت الله... وحملته السفينة إلى
الإسكندرية" (عيساوي، الديوان الإمبرطي، 2018)

ولكن حالهم يقول: " لا يمكن أن يصبح الهلال صليبا قرون من الحروب والموتى ، وما حال هلال إلى
صليب مثلما لم يتحول صليب إلى هلال بالنار لا نستطيع تغيير إيمان الناس قد يتشبهون بك زمنا طويلا ولكن
قلوبهم ستبقى معلقة بالشرف " (عيساوي، الديوان الإمبرطي، 2018)

طمس أسماء الشوارع:

وعمدت السلطات الفرنسية إلى تغيير أسماء الشوارع والأزقة حيث " غابت أصوات الموتى لكن الحقيقة
لم تغب، نقرؤها عند كل منعطف للمحروسة، شارع شارل الخامس، شارع دوكين ، شارع دوربا، شارع كليبر،
باب فرنسا، لم تعد الأسماء نفسها وبعض الحوارية اختفت أشكالها القديمة وبنيت أخرى وبأسمائها المختلفة"
(عيساوي، الديوان الإمبرطي، 2018).

فبطمس الأحياء والحارات وأسمائها يراد به أن " يختفي المكان في حضرة الموت، رهبة منه وخشية من
سلطوته وقدرته على إخفاء الحياة". (عمري، 2018)، فالمستوطن سعى إلى تذويب الشعب الجزائري برمته في

المجتمع الفرنسي بدافع أن الاحتلال يحمل مشروعا حضاريا كما أنه يسعى لتخليص الجزائريين من الاستبداد العثماني.

خاتمة:

عجت رواية الديوان الإسبرطي بعديد الثيمات والقضايا أبرزها تيمة الموت وهو ما لمسناه في الرواية ليتبين أن الموت داخل الرواية له أبعاد أخرى متعددة ومتشظية غير صورته النمطية المتمثل في استلاب الحياة، فثنائية الموت والحياة، تعددت وحداتها الصوتية والفنية كما تعددت الأصوات والشخصيات فيها برؤية تخيلية جمالية عالج فيها الروائي جانبا مهما من تاريخ الجزائر بكل حيثياته السياسية والاقتصادية والثقافية والدينية. كما سلط الروائي الضوء على المشروع الفرنسي الكولونيالي باستيلايه الحضاري وهيمنته الثقافية وهو مالم يتحقق على أرض الجزائر في ظل التشبث القوي بالأرض والدين وغيرها من الثوابت.

. كما سعى إلى تفكيك عديد القضايا التاريخية وإزالة اللبس عنها والتي أثارت الجدل التاريخي .

المصادر والمراجع:

الرحمان، ل. ع. (2012). *لينا عبد الرحمان. دلالات المكان الروائي في ثلاث روايات عمانية معاصرة رواية المرأة نموذجاً مجلة نزوى بتاريخ 1 يوليو. مجلة نزوى.*

حمداوي، ج. دون سنة. (المقاربة الموضوعاتية في النقد الأدبي). Récupéré sur <http://www.arabicnadwah.com/articles/muqaraba-hamadaoui.htm>

رمزي، أ. دون سنة. (الاستعمار الفرنسي في شمال إفريقيا. مصر: المطبعة النموذجية.

شورن، ج &، كامل، ح. (1978). *الموت في الفكر الغربي. الكويت: عالم المعرفة.*

عبد الله الخطيب. (2008). *با كثير قراءة في الرؤية والتشكيل 2008. با كثير قراءة في الرؤية والتشكيل 2008.*

عمري، ز. (2018). *صورة الموت في الرواية الخليجية المعاصرة. حوليات جامعة عين الشمس* 14. p. ,

عيساوي، ع. ا. (2018). *الديوان الإسبرطي* (Vol. 1) دارميم للنشر، صفحة 65.

عيساوي، ع. ا. (2018). *الديوان الإسبرطي* (Vol. 1) الجزائر: دارميم للنشر، صفحة 231.

عيساوي، ع. ا. (2018). *الديوان الإسبرطي*، (Vol. 1) الجزائر: دارميم للنشر.

فيدوح، ع. ا. (2021). *الذاكرة المتلاعب بها في الديوان الإسبرطي. مجلة التأويل وتحليل الخطاب* 81. p. ,

- لوكاش، ج. (1986). الرواية التاريخية التاريخية ترجمة صالح الكاظم 1986.
- محمد، أ. ب. (دون سنة). (الحدث الروائي والرؤية في النص مجلة دواة ص 03.
- هامون، ف. (2013). سيميولوجية الشخصيات الروائية تر سعيد يقطين تقديم عبد الفتاح كليطوط 1 2013 دار الحوار للنشر سورية.
- هلال، ع. أ. (2005). *تراجيديا الموت في الشعر العربي المعاصر*. (Vol. 1) القاهرة: مركز الحضارة العربية.
- وغليسي، ي. (2008). إشكالية المصطلح في الخطاب العربي الجديد. الجزائر منشورات الاختلاف ص 153.

كيفية الاستشهاد بهذا المقال حسب أسلوب APA :

كحيلش الطيب، قدراني حكيمة، (2023)، *تيمة الموت في رواية الديوان الإسبرطي لـ "عبد الوهاب عيساوي"*، مجلة أنسنة للبحوث و الدراسات، المجلد 14 (العدد 1)، الجزائر: جامعة زيان عاشور الجلفة، ص.ص 80-91.